

ففي نقد التفسير الكاريزمي لنمو الحركة القومية العربية (حالة جمال عبد الناصر)

محسن خضر

يعد التفسير الكاريزمي لنمو الحركة القومية العربية التفسير الأكثر انتشاراً في الأدبيات الغربية والعربية التي تناولت نمو الظاهرة القومية في المشرق العربي ومصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وسوف تحاول هذه الدراسة عرض التفسير الكاريزمي، وتأصيله ثم تطبيقه على نمو الحركة القومية العربية خلال الخمسينات بالتحديد من خلال ارتباطها بقيادة جمال عبد الناصر التاريخية، وتختتم هذه الدراسة بمحاولة أخرى لتقديم تفسير بديل للظاهرة القومية العربية يتلافى عيوب التفسير الكاريزمي الشائع.

١-١ مفهوم القيادة الكاريزمية:

ينتسب مصطلح الكاريزمية إلى ماكس فيبر، وقد عني به الشخص الذي يتمتع بمجموعة من السمات التي تجعل منه شخصاً خارقاً يتمتع في نظر الجماهير بقدرات غير مألوفة، وينظر إليه من قبل هذه الجماهير بشيء من القداسة. ويحاط القائد الكاريزمي بمجموعة من معاونين والمؤيدين يستمدون منه نفوذهم، وتمثل القيادة الكاريزمية قوة ثورية تصبح الأساس في إضفاء الشرعية ما دامت تلقى التأييد من المناصرين والاتباع (١)

ويرتبط سحر وجاذبية القائد الكاريزمي بقدرته على التوفيق بين المصالح المتعارضة وتوجيه الجماعات المتعددة إلى وجهة واحدة لتحقيق هدف مشترك، وهو يسعى للتغلغل بين الجماهير والتأثير عليها بوسائل ودية من خلال الاعتماد على الشعبية وتأييد الجماهير واعجابها بشخصيته، فتتطابق رغبات الجماهير ومطالبها ورغبات القائد ومطالبه، وبذا يكون الناطق بلسان الجماهير (٢).

والقائد الكاريزمي - كما يذهب دكمجيان - هو صانع أساطير لاعقلانية ، لأنها تعتمد على الحدس والغريزة والعقيدة في شكلها أو في استخداماتها السياسية. فالقيادة الكاريزمية والاسطورة مترابطتان بعمق وتتشركان في الأصل اللاعقلاني والأبعاد الحدسية والعقيدة والمشاعر (٣).
والقائد الكاريزمي يتمتع بخصائص . خارقة حسبا تراها الجماهير، وهو يتمتع بجاذبية كبيرة وقدرة واسعة على التأثير على الجماهير بحيث تنساق وراءه في ولاء شبه أعمى.
ويمكن للقائد الكاريزمي أن يكون أداة فعالة للتنمية السياسية حين يعمل على تحقيق تكامل الدولة ويصبح رمزاً للقومية ، وقد يستخدم الظروف العالمية لخلق الهوية وتعبئة الجماهير نحو أهداف التنمية (٤).

ويربط دكمجيان في تفسيره للقيادة الكاريزمية بين ثلاثة عناصر: السيطرة والقوة والشرعية، ولعله من المحللين السابقين الذين درسوا القيادة الكاريزمية لجمال عبد الناصر في تحليل واع، وصاغ المعادلة القاعدية كالاتي
السيطرة = القوة + الشرعية (٥).

وتخفي السلطة المسندة إلى الكاريزمية إذا فقدت القيادة الكاريزمية (التاريخية أو الالهامية) قوتها السحرية . والحكم الكاريزمي لا يدار طبقاً لقواعد أو تقاليد عامة ، ولكن طبقاً لمبدأ الالهام، والعوامل التي تسمح بظهور القيادة الكاريزمية هي:

١- موقف أزمة اجتماعية حاد يتسم بالاستجابة الشخصية لتحطيم الآلية القائمة للصراع في المجتمع ، ويؤدي إلى خلق شعور عميق بالاعتماد على النفس والتوقعات. وعلى المستوى السياسي تجتاح النظام وقادته وتجتاح أيضاً المؤسسات والايديولوجية والبيئة الاجتماعية أزمة شرعية نظراً للشعور بالغربة الذي ينتاب الجماهير.

٢- ظهور شخصية يقتدى بها، فبدون هذه الشخصية (الزعيم الكاريزمي) لا تنشأ العلاقة الكاريزمية.

ويرتبط نشوء الكاريزما كذلك بأربعة عناصر متفاعلة في تصور آخر هي:
الرسالة والأداء والصفات والشخصية. فالقائد يكشف عن ذاته خلال أداء بطولي ورسالة مقدسة وهما يعززان بعضهما البعض . وتعتمد الكاريزما في أحد جوانبها على ربط القائد نفسه بالرموز المقدسة لثقافة شعبه والاستشهاد بالبطولات والأساطير التاريخية لهذا الشعب بهدف إيجاد رابطة مستمرة بين القائد الكاريزمي والابطال القوميون لشعبه ، بمعنى أن يصبح رمزاً للقومية وممثلاً للبطولة ومعبراً على الكرامة القومية بما يجعله يتخطى العلاقات والتناقضات القائمة بين أفراد

شعبه وتحقيق نوع من التجانس فيما بينهم (٦) .

٢-١ القيادة الكاريزمية لجمال عبد الناصر:

لم تحظ قيادة عربية معاصرة بالمكانة التي حظيت بها قيادة عبد الناصر خلال الخمسينيات والستينيات . ويمكن وضع ثلاث قيادات تاريخية كان لها هذا التوهج القومي وهي صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي وعبد الناصر ، ونسجل ملاحظة عرضية وهي أن القيادات الثلاث ظهرت وتألفت في مصر .

- والواقع أن دور عبد الناصر لم يبرز في الحياة السياسية ويكتسب حداً كبيراً من الاستقلالية وحرية الحركة وتصبح شخصيته بمثابة "مؤسسة" مؤثرة وفعالة إلا بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ، عندما اكتسب في المعركة الوطنية رصيذاً ضخماً كبطل وقائد وطني(٧).

ولعل مفهوم القيادة السياسية في المنطقة العربية بات يختلف بعد عبد الناصر عنه قبله ، فقد جاء عبد الناصر كزعيم للأغلبية وكان عبد الناصر كالأب يملأ كل شيء حوله (٨). بل يمكن أن نفهم الناصرية على أنها أول لقاء عربي معاصر بين الزعامة والقاعدة : الزعامة السياسية والقاعدة الجماهيرية الواسعة على امتداد الوطن العربي الكبير، وأصبح عبد الناصر هو الزعيم الوحيد الذي نسب إليه عصره بأكمله ، فكان عبد الناصر بطل عصره ، وكان عصره أيضاً هو حياته.

ولما يقرب من العقدين من الزمن كان عبد الناصر القطب الرئيسي في مصر والعالم العربي، بل اعتبر أحدهم ان الشعب كله كان وكأنه تحت وطأة مغناطيس هائل ، بل اجتاحت الحماسة الوطن العربي كله ، فالجماهير وحدها صاحبة الحكم القاطع على مصير الزعامة(٩).

وقد تطورت الحركة القومية العربية، واستفادت من كاريزمية عبد الناصر ، ويتطرف البعض- مثل جاك بولين- إلى حد القول بأن القومية العربية نتاج ناصري ، ولولا شخصية جمال عبد الناصر لما كانت هناك قومية عربية (١٠) . وهي مبالغة غير علمية ، نفتقد النظرة التاريخية لتطور النضال القومي ، وتتغافل عن ازدهار الفكر القومي في الشام والعراق منذ نهاية القرن الماضي ، فالقومية العربية- بطرحها الايديولوجي الحديث- أقدم من عبد الناصر، بل هي التي دفعته لتضعه في طليعة قيادة هذه الحركة.

ونظرية الزعامة الناصرية- كما يذهب مطاع صفدي- انما " تنسجها انجازات الرجل في رفعة شعبه وأمتة " (١١).

وتوضح نجاح العطار هذه العلاقة في رؤية تختزل الحس إلى ما هو جوهرى حيث ترى أن هذا

التفاعل بلغ مده الأعلى مع الرئيس جمال عبد الناصر ، الذي اعطى للدعوة القومية ، حينما وصل إلى السلطة ، دفعة قومية نقلتها إلى مستوى الجماهير ، فصارت الايديولوجية القومية ، وما فيها من شعور عربي بالتميز ومن طموح إلى الوحدة العربية ، مدار نضال سياسي قومي سار فيه الوطن العربي من المحيط إلى الخليج (١٢).

وهكذا ساهمت فكرة العروبة والقومية العربية في تكوين الكاريزما الناصرية التي تعدت حدود مصر إلى عديد من الدول العربية (١٣). وعمل هذا الارتباط المزدوج بين الوعي والزعامة، فاستحال مولد أي منهما بدون مولد الآخر، فتأخر ظهور الزعامة الصحيحة والوعي الصحيح هذا الوقت الطويل ، تأخر طيلة مدة قرن ونصف القرن من بعد تجديده الحياة العربية، ذلك التجديد الذي تشكل حملة نابليون على المشرق علاقة رمزية وفعلية له (١٤) .

كان ذلك التشبث الجماهيري الهائل بشخص عبد الناصر في جميع أقطار العروبة يعني انتماء للمبدأ الذي مثله هذا الانسان منتصراً أو مهزوماً ، وهو مبدأ الهوية القومية النهضوية الذي جسده عبد الناصر في أمة العرب من فوق حدودها ومسافاتهما واختلافاتها وانحطاطاتها. وبالمقابل كان ضرب الوحدة ثم هزيمة مصر ثم مقتل عبد الناصر فصولاً متتابعة للانقضاض على هذه الهوية وطمس مشروعيتها وانتزاع مركزية قيادة الشخصية من عبد الناصر ومركزية قيادته القومية في مصر(١٥).

ويشير فاتيكوتيس أنه طيلة الخمسينيات ولمدة عشر سنوات بعد ثورة الضباط الأحرار في مصر كانت القومية العربية متأججة بسبب الشخصية القومية لناصر. فمكانته ونجاحاته ومقدرته ثم طبيعته كقائد سياسي ، ساعدت على استخلاص أقصى فائدة من الحرب الباردة في الخمسينيات (١٦) . وان كنا نلاحظ ان فاتيكوتيس يركز على أن النمط الآسيوي للانتاج ودولة النهرعوامل تساعد على التركيز على شخصية الزعيم معتبراً عبد الناصر هو المدخل الصحيح لفهم السياسة المصرية في عصره ومشيراً بدرجة أضعف بكثير إلى دور العناصر الأخرى: السياق التاريخي والبنى الاجتماعية .

هذا اللقاء بين العصر والزعيم ، يفسر بصيغة أخرى. فقد كان عبدالناصر مثيراً وموحداً للموحدات الحضارية الكبرى- في رأي سعد الدين ابراهيم- في الوطن العربي . وفترات المد والصعود في هذا الوطن محكومة بظهور القائد القادر على استثارة وتحريك هذه الموحدات الكبرى: أمجاد الماضي وأصالته ، امكانيات الحاضر المادية والروحية ، ورؤية المشروع القومي الواعد بمستقبل زاهر(١٧).

غير أن للزعامة مبرراتها أيضاً وليست مجرد قدر تاريخي ، أو مسألة ظروف ورغبة جماهيرية ، الزعامة هي عمل وخدمة وإنجاز وتوجه وممارسات. وقد استطاع عبد الناصر، بتنفيذه عدداً من الإجراءات، أن يمثل أغلبية الشعب تمثيلاً صادقاً وأن يدافع عن الاماني القومية دفاعاً حقيقياً، واستطاع بواسطة ذلك أن يتحول إلى رمز للحركة الوطنية المعاصرة فتبأبعه عبر هذه الحركة أغلبية العرب بزعامة لم يحصل عليها من قبل أي زعيم آخر ، لا من حيث اتساع افقها وشمولها، ولا من حيث نوعيتها، زعامة جاءت كحاصل لإدراك الشعب إدراكاً لا تمويه فيه ولا ارغام (١٨).

وهكذا فقد كان تغلغل عبدالناصر في عقول جماهيره واحساسه بالأمها وآمالها وتعبيره عن مطالبها من العوامل الهامة التي كفلت الاستقرار للنظام الذي أوجده رغم كل الصعاب والعقبات التي اعترضته، وذلك نتيجة لاقتناع الشعب بالرسالة التي توجه بها الرئيس عبد الناصر وما تتطوي عليه هذه الرسالة من رموز كالكرامة الوطنية والعدالة الاجتماعية والقومية العربية والتنمية والعداء للاستعمار والصهيونية (١٩).

ولقد أدت القيادة الناصرية إلى وجود احساس بالتضامن والتجانس لدى المصريين والعرب، مما أوجد لديهم اعجاباً مشتركاً بهذا القائد الذي أعاد لهم عزتهم وكرامتهم القومية، فالتفوا حوله وأيدوه . ومن هذه الزاوية كان عبد الناصر مصدرا للاستقرار السياسي ، ولقد كان يمثل القائد التاريخي الذي يتوجه إلى الجماهير برسالة القومية العربية والمعبر عن العزة والكرامة القومية والمتمتع بقدر من الولاء لم يتحقق لأي زعيم عربي آخر (٢٠).

٢-٢ السياق التاريخي:

يعتمد فهمنا للتفاعل بين القيادة الناصرية والظاهرة القومية العربية على استيعاب حركة السياق التاريخي ، وقوانينه ، وقواه الفاعلة . كانت الخمسينيات هي عصر التحرر الوطني للعرب وللعالم الثالث ، وجاءت حقبة عبد الناصر في تلك المرحلة الانتقالية التي كانت ظروفها الموضوعية على حالة تسلم وتسليم بين مدرسة الاستعمار الاوروبي التقليدي والاستعمار الحديث ذي الوجه الامريكي. وكان يمكن لهذه المرحلة أن تتم بالطريقة الاسهل التي تمت بها مراحل انتقالية كثيرة لشعوب جنوبي شرقي اسيا، لولا أن يقظة العرب جمدت تلك المرحلة، وحاولت أن تحقق عملية التسليم والتسلم لصالح تحررها واستقلالها الوطني القومي الشامل.

وجاءت ممارسة عبد الناصر لترمز إلى تلك الحالة التاريخية الجديدة، حالة القطيعة مع

الاستعمار القديم كلياً، والدفاع العام ضد عودة الاستعمار الجديد (٢١). وقد تحركت القيادة الناصرية فوق عدة محاور متأثرة بالسياق التاريخي الذي ظهرت فيه. فعبد الناصر لم يكن نسيج ذاته أو قائماً بذاته ، بل هو نسيج مرحلة في تاريخ أمتنا، وأياً ماكانت ثغراتها، فلقد كانت مرحلة نهوض وتقدم.

ولئن جسد عبدالناصر صورة نموذجية للرجل التاريخي، كما هو الأمر بالنسبة للرجال العظام الذين برزوا في حياة الأمم وكان لهم دورهم التاريخي، فإنه لم يأت استثناء بل تجاوباً مع ظروف أمة وتلبية لحاجياتها وتعبيراً عنها . وكما قال عبد الناصر ذاته "ما أنا إلا تعبير عن القومية العربية في مرحلة من حياة الأمة " (٢٢).

وجاءت قيادة عبد الناصر مع استعادة التاريخ العربي لوحدته الضائعة ، وبقدر ما عاون في الولادة الجديدة لهذا التاريخ من خلال علاقته المتميزة بالجماهير(٢٣).

فعندما جاء عبد الناصر إلى المسرح السياسي كان المسرح مستعداً لاستقباله ونظرت إليه الجماهير باعتباره المنقذ أو المخلص ، وخاصة في ظل تدهور الأوضاع الداخلية وتفشي الفساد والفقر وهزيمة ٤٨ . وقد تحركت القيادة الناصرية محاولة أن تستوعب هذا السياق التاريخي المعقد، ساعية بأليات ساذجة حيناً، ومتقدمة حيناً- آخر، إلى أن تتفاعل معه. فعلى محور الصراع الاجتماعي والطبقي ، وعلى محور النضال الوطني والقومي العربي، وعلى محور النضال ضد الاستعمار بأشكاله التقليدية والامبريالية الجديدة ، على هذه المحاور الثلاثة صاغت الثورة الناصرية حركتها التاريخية. ولكن عبد الناصر في إطار الواقع التاريخي والجغرافي والسكاني لمصر، وفي إطار معطيات الواقع العربي وتواصل التجزئة القائمة بين أقطاره واختلاف أطوارها في التقدم والتحرر واختلاف نظمها، وفي مواجهة ذلك الواقع المتجسد بقيام الكيان الاسرائيلي الاستعماري الاستيطاني المدعم بالحلف الامريكي الصهيوني العالمي، أراد أن يجعل من مصر القطر العربي الأكبر والأكثر تقدماً في اندماجه الوطني وتطوره الاجتماعي والثقافي وكذلك في موقعه الاستراتيجي والدولي (٢٤) .

لقد كان الاحتلال الانجليزي لمصر بمثابة الحصار الجهمني لدور مصر العربي، حتى أقيمت ثورة ٢٣ يوليو بقيادة عبد الناصر، وكان أول حاكم مصري في العصر الحديث يشير إلى هذا الحصار، ولم تكن ثورة ٢٣ يوليو مجرد رد فعل للأحداث الداخلية التي تفجرت في مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . بل ربما كانت أيضاً من احدى الزوايا رد فعل لحدث عربي خطير هو الحرب العربية- الاسرائيلية الأولى التي انتهت بمأساة ١٩٤٨ (٢٥).

ولهذا ينبغي أن تعاد قراءة شخصية جمال عبد الناصر، فعند ظهوره كانت الجماهير العربية تظن أن متاعبها الاجتماعية سوف تنتهي عندما تتال الاستقلال السياسي وتسعى نحو الوحدة العربية، ان هذه الفكرة المختصرة تحولت إلى ايديولوجية عامة. ولئن بدا عبد الناصر وكأنه المحقق لهذه الامنية، وكأله المخلص، فان هذه البنية الايديولوجية قد تلبسته، وقد قبلها عبد الناصر، وبالفعل سعى عبد الناصر وظل يعمل حتى الرمق الأخير ليحققها (٢٦).

لقد وصلت الناصرية بالنضال العربي ضد السيطرة الخارجية إلى أعلى ذروة وبالتحديد استخدمت قيادة عبد الناصر امكانات مصر في تصفية علاقات التبعية التي كانت تربط قسماً كبيراً من الوطن العربي بانجلترا أو فرنسا (٢٧).

ويلخص روبرت ستيفن تأثير الظاهرة القومية بالسياق التاريخي عند عبد الناصر بقوله : "كان عبد الناصر متأثراً أعمق التأثير بالسياق التاريخي والحضاري الذي يتحرك فيه. لقد كان مصرياً، عربياً، مسلماً، ولكنه كان أيضاً وفي نفس الأساس ثائراً من ثوار العالم الثالث . لقد كان نتاجاً ومحركاً لنفس الثورة المعادية للاستعمار والامبريالية التي أفرزت نهرو، وماو تسي تونج ، وسوكارنو، وكاسترو، وهوشي منه " (٢٨).

٢-٣ تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ :

الكاريزما تحتاج إلى إنجاز كبير ، إلى عمل خارق يرتبط بتطلعات الجماهير ويستمد شرعيته منه. وقد مثل تأميم عبد الناصر لقناة السويس ذلك الانجاز .

ويمكن الذهاب إلى ان قيادة عبد الناصر القومية قد دشنت مع تأميم قناة السويس ، فكانت معركة السويس هي التي وضعت مصر الناصرية في مركز قيادة حركة القومية العربية وحركة الوحدة العربية . وبقيادة عبد الناصر للحركة القومية تحول الفكر القومي والعمل الوحدوي إلى تيار شعبي هائل من المحيط إلى الخليج (٢٩).

وكان تأميم القناة عام ٥٦ هو أول رد عربي كبير على هزيمة ٤٨ وخاصة إذا لاحظنا ان هزيمة ٤٨ المشينة قوضت شرعية النظام الملكي في مصر والنظم الأخرى في دول المواجهة العربية. لقد عزف عبد الناصر - دون أن ينتبه- على اللحن المميز لدى الجماهير العربية وهو لحن العزة القومية والذي ينبعث دائماً من الاحتكاك بالاستعمار الغربي والمساس بسطوته وهيئته. ولذا فقد ضخم تأميم القناة من نزعة الكرامة القومية بين ملايين العرب . ويشير دكجميان إلى هذه الحقيقة بقوله:

" في ضوء الكراهية شبه الكاملة بين العرب للغرب ، فان أهم قضية يمكن أن يحتضنها زعيم واع هي سياسة معاداة للغرب . ولقد أمت القناة في وقت يتعاضم فيه شعور الاحباط لدى العرب في أوائل الخمسينيات ، وفي هذا دليل على مقدره عبد الناصر النفسية على توقيت المعارك " (٣٠).

ويمكن اعتبار كسر حصار الاسلحة وتأميم قناة السويس مدخلاً موسوعياً لنظرية العمل الناصري ، إذ كان هذا المدخل يربط الوطني بالقومي ، وهي تلك السمة التي لم تكن حركة التحرر الوطني العربية قد استطاعت بعد أن تتبينها، فقبل هذين الحدثين كانت مكافحة الاستعمار تتم ضمن الدول القطرية دونما ارتباط مع مكافحته في الاقطار الأخرى (٣١).

ويقترب منح الصلح من هذا المعنى، إذ يرى أن من انجازات عبد الناصر مساهمته الكبرى في اخراج الوطنية من حدود الأقطار إلى حدود الوطن العربي ككل ومساهمته كذلك في اخراج حركة التحرر العربي من الاطار القومي الخاص إلى الاطار العالمي (٣٢).

ومثلما كان التأميم استقلالاً اقتصادياً فقد كان تمهيداً لتحرير قومي شامل أوقد النيران في شرايين العرب من المحيط إلى الخليج ولم يصبح عبد الناصر قائداً للثورة العربية إلا منذ تلك اللحظة (٣٣).

لقد التقط المشرق العربي الرسالة الناصرية التي وجهتها قضية تأميم القناة ، وفهم محتواها وما لبث أن تجاوب معها في اجماع قومي شامل.

نجح إذن تأميم القناة ، وما تلاه من عدوان ثلاثي ، والتفاف العرب حول قيادة واحدة هي قيادة عبد الناصر في مصر، وانتقل عبد الناصر إلى ملعبه الحقيقي على امتداد الأمة العربية وليس المساحة المصرية وحدها.

وبالفعل كانت معركة السويس نصراً سياسياً ونفسياً وحضارياً، وأبرزت المعركة الرباط العضوي بين الوطنية المصرية والقومية العربية وعمدت المعركة عبد الناصر زعيماً للعرب بلا منازع ومن ذلك الوقت أصبحت الأمة العربية لا تصغي إلا لقائد واحد حتى لو استمعت لعشرات من منافسيه (٣٤).

٢-٤ موقع مصر:

يلعب الموقع دوراً هاماً في النموذج المعدل لتفسير الظاهرة القومية . فالقيادة الكاريزمية بناء على هذا النموذج لا تبرز في أي بلد ، بل يشترط أن تظهر في دولة الاقليم / القاعدة التي تتمتع بموقع

حيوي وكثافة بشرية عالية وقدرة كبيرة على التأثير في صناعة القرار في منطقتها. وقد وفرت مصر لقيادة عبد الناصر الكاريزمية كل هذه الشروط . فلا شك أن انتماء عبد الناصر إلى بلد كمصر أفاده من عدة نواح . فمصر أكبر الدول العربية من حيث عدد السكان والامكانات ، وأشهرها في المجال الدولي، وأعرقها في التاريخ ، وأكثرها تمرساً في الاستقلال وأقدمها في اثبات الوجود عالمياً. وهي قاعدة الوطن العربي سياسياً وحضارياً ونفسياً وتقنياً وفنياً. وتحفظ باعتبار خاص في نفوس العرب لا يتوفر لأي اقليم عربي آخر من الناحية السياسية والنفسية ، حتى ولا للمدن ذات الاماكن المقدسة . كانت مصر - بتعبير أنيس صايغ - قاعدة التعليم والثقافة والفكر والطباعة والنشر منذ القرن ١٩ . وكانت قاعدة التحرر العربي والعمل القومي منذ أيام العثمانيين . ثم ترسخ دورها العربي السياسي والتحرري من بعد تأسيس الجامعة العربية وخروج وادي النيل من عزلته العربية خلال الحرب العالمية الأخيرة، وفي اعقابها، وفي حرب فلسطين، خاضت القتال بأكبر جيش وتحملت أكبر الخسائر وشغلت قواتها أوسع ميدان، وكان دورها في القضية الفلسطينية منذ ٤٨ هو الدور الرئيسي. هذه الاعتبارات وأمثالها جعلت لأي حاكم لمصر مكانة خاصة بين الحكام العرب (٣٥).

لم تكن صدفة إذن أن تكون مصر دون غيرها القاعدة الرئيسية لما نسميه النهضة العربية الحديثة (٣٦)، ولم يكن الدور سهلاً وميسراً في كل الأحوال ، بل كان مليئاً بالمعاناة والتضحيات التي تجاوزت في جانبها البشري - مائة ألف شهيد سقطوا في الصراع ضد الخطر الصهيوني - ناهيك عن سقطوا على أرض اليمن . ولقد جاءت الناصرية لتطرح في آن واحد حتمية وصعوبة قيادة القطر المصري لمجموع الوطن العربي (٣٧).

ويلاحظ سعد الدين ابراهيم ان ميزة مصر كقاعدة للقيادة قد يكون شرطاً ضرورياً ومع ذلك ليس شرطاً كافياً. فلن يتحقق هذا الأخير، فلا بد من إدراك أبعاد الأزمة الحضارية للعرب ولا بد من صياغة استجابة مقنعة لهذه الأزمة ، ولا بد من توصيل هذه الاستجابة لملايين العرب، والايحاء لهم بانها استجابة فاعلة وقابلة للتنفيذ . هنا اعتقادنا أن عبد الناصر قد نجح في استيفاء كل هذه الشروط (٣٨).

وربما وعى عبد الناصر في فلسفة الثورة - إلى حد ما - لعبة الدوائر التي تشكل مصر مركزها بدرجة ما - فكانت الدائرة العربية هي احدى هذه الدوائر مع الدائرتين الافريقية والاسلامية، وان لم يترجم هذا الوعي عملياً إلا بعد تفاعلات تأميم القناة. وكما يقول جمال حمدان (مصر مفتاح العالم العربي إذا سقطت سقط ، وإذا فتحت فتحت) (٣٩).

وهو ما يرشح مصر في المستقبل للعب الدور المركزي في أي مشروع وحدوي مؤثر في الوطن العربي ثنائي أو جماعي يستهدف تحقيق الدولة الوحوية.

٣- ١ التفسير البديل:

تحتل الظواهر الاجتماعية في تفسيرها لرؤية واسعة نفضها طبيعة هذه الظواهر من حيث تعقدها وتشابكها وتداخل عناصرها المؤثرة. وقد تخطى الفكر العلمي مرحلة التفسير العلمي الأحادي في دراسته للظاهرة الاجتماعية، مما يوفر للباحث الاجتماعي مساحة أوسع وأعمق وأدق للعمل.

والظاهرة القومية باعتبارها إحدى الظواهر السوسولوجية يجب أن تخضع لهذا التفسير، والمتعدد، ولذا فإن ربط نجاح الظاهرة القومية العربية في الخمسينيات والستينيات وانحسارها بعد ذلك بالقيادة الكاريزمية التي مثلها عبد الناصر دون سواها يسقط من الاعتبار جوانب فاعلة هامة ويحجب عن محاولة الرؤية والفهم عوامل متعددة الأهمية، والنموذج المقدم يوفر تفسيراً مبدئياً بديلاً لفهم الظاهرة القومية العربية ويتسع لجملة من القوى الفاعلة المؤثرة في هذه الظاهرة. ويلاحظ أن النموذج المرفق يحدد ثلاث قوى أساسية يمكنها أن توفر فهماً دقيقاً للحركة القومية العربية وهي:

١- تاريخية الظاهرة: تطورها التاريخي وحركتها الزمنية الجدلية المتواصلة.

٢- الواقع الاجتماعي: ويدررس شكل وطبيعة البنى الاجتماعية القائمة، وتوزيع الثروة وملكية وسائل الانتاج وما يترتب عليه من بنى قومية متواترة ومتعكسة التأثير على البنى التحتية، وطبيعة العلاقة بين الطبقات الاجتماعية.

٣- القيادة الكاريزمية: وهي تستند إلى تحليل مزدوج لعاملين: أولهما الصفات الشخصية للفائد السياسي الذي يلعب دوراً مؤثراً في مسار النضال القومي، والثاني دور الموقع الذي تظهر فيه هذه القيادة الكاريزمية ومدى توفر جملة من الشروط في الدولة/ القاعدة. ولعل دراسة حالة مصر في الصفحات السابقة قد وفرت لنا فهماً لهذه العلاقة وتأثيرها على نجاح تلك القيادة التاريخية.

ان اتجاه حركة الواقع الاجتماعي العربي والنامي نحو التعددية السياسية والمشاركة الجماهيرية الواسعة وتوفير الممارسة الديمقراطية الحقيقية يجعل من تعددية مراكز صنع القرار السياسي في المجتمع، وجدية التمثيل الشعبي الحقيقي بديلاً مناسباً وموضوعياً عن القيادة الفردية والسلطة الاحادية للزعيم الملهم أو الزعيم المنفرد.

وهذا التفسير البديل- الذي يتلافى عيوب التفسير الاحادي للظاهرة القومية- يؤدي بنا إلى فهم أفضل لصعود المسار القومي في الوطن العربي في الخمسينيات والستينيات، ويجعله محصلة لتراكمات متصلة من الأطروحات الفكرية والممارسات العملية وتنامي الوعي بالحقيقة القومية العربية، وبالتالي يؤدي هذا الاطار بنا إلى فهم القيادة القومية لجمال عبد الناصر ضمن إطار صحيح ربما فسرتة الدراسة الراهنة من خلال علاقة التقاطع بين الرجل والظاهرة القومية (بعناصرها الثلاثة المؤثرة) وليس كما ذهب فاتيكونيس ودكمجيان وبعض الباحثين العرب، كما يذهب أحدهم خطأ إلى أن " الحركة العربية اعتمدت على العنصر الشخصي الكارزماتي لجمال عبدالناصر الذي لم تكن له ايديولوجية واضحة المعالم قبل أن يتولى السلطة في مصر " (٤٠) ويبدو أن هذا الرأي مجرد ترديد لبعض ما تتناقله ادعاءات المراجع الأجنبية التي شوهت حقيقة الحركة القومية العربية وردتها إلى القيادة الكارزمية لعبد الناصر متجاهلة علاقة التاريخ/ الواقع ، أو التطور التاريخي للظاهرة القومية من خلال جهود الأفراد والجماعات القومية كمفكري البعث والقوميين العرب وغيرهم في الشام والعراق ومصر والذين مهدوا الطريق لصعود الوعي القومي إلى مدها البعيد قبل ان تأتي قيادة عبد الناصر وتترجم الخطاب القومي إلى واقع عملي وحدوي حي تراه وتعشه الجماهير بعد أن كانت تسمع عنه فقط ، فعبد الناصر كان تلميذاً مجداً في مدرسة القومية ، استوعب دروسها، وانصاع لتيارها الدافق ، وان استغرق الامر منه حوالي الخمس سنوات ليعي ذلك ، ولكن ليعطي للنضال القومي أهم صفحاته في تاريخ العرب الحديث، وهي وحدة مصر وسوريا (٥٨-١٩٦١). ولعل عمليته غفرت له وللمصريين تأخر تطور الوعي القومي بالمقارنة بواقعه في الشام والعراق ، وحيث كانت للقضية الوطنية المصرية الصدارة لعشرات السنين في حين كان الخطاب القومي مفردة يومية في الشارع السياسي العربي في الشام والعراق .

وربما يفرض علينا الموقف العلمي، والأمانة للنضال القومي، ألا نجلس طويلاً مطرقي الرؤوس في انتظار القيادة الكاريزمية القومية، فمصائر الأمم تدار بطريقة مخالفة بالتأكيد.

هوامش الدراسة

(١) Max Weber : Economy and Society , Bedmister Press , New York , 1968 , P 241 .
(٢) Robert Clark : Development and instability , N. Y . Teddry den Press, 1974 , pp 228 - 230

(٣) R. Dakmejaen : Egypt Under Nasser : Astudy in Political Dynamics , Press Ltd University Of London , 1978 , p 56

(٤) اكرام عبد القادر بدر الدين : ظاهرة الاستقرار السياسي في مصر ، (١٩٧٠ - ٥٢) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٥٨ .

(٥) Dakmejaen ; op . cit, p 10

(٦) ثروت زكي مكي : النخبة السياسية والتغيير الاجتماعي في مصر (١٩٦٧ - ٥٢) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٧٣ ، المقدمة .

(٧) هاني الزغبي : مسألة البنية التحتية للقضية القومية واتجاه قانون القيمة في العالم العربي ، مطابع الكرمل الحديثة ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٣٢٩ .

(٨) أحمد خليفة : الرأي بالرأي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٣١ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(١٠) جاك بولين : مع القومية العربية ، ترجمة نجدت هاجر وآخرين ، كتاب الملايين ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ٥٩ ، ص ١٣ .

(١١) مطاع صفدي : الفكر القومي والممارسات الوجودية لثورة يوليو ، ندوة ٢٣ يوليو ، قضايا الحاضر وتحديات المستقبل ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٦ .

(١٢) نجاح العطار : الوحدة العربية فكراً وجذوراً ومنطلقات ، مجلة شؤون عربية ، جامعة الدول العربية ، سبتمبر ١٩٨٥ ، ص ٣٣ .

(١٣) A . J . Dawisha , Egypt in Arab World , the Elementary of Foreign Policy , The Mac Willan Press , London , 1970 , p130

(١٤) أنيس صايغ : من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر ، منشورات جريدة المحرر والمكتبة المصرية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ١٥٤ .

(١٥) مطاع صفدي : مصدر سابق ، ص ٢٩ .

(١٦) P . J . Vatikotis : Conflict in the Middle East , p 19

(١٧) سعد الدين إبراهيم : لماذا كان عبد الناصر زعيماً قومياً ؟ المشروع القومي لثورة يوليو ، سلسلة الذكرى الثلاثين لثورة يوليو ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٣٢٦ .

(١٨) أنيس صايغ : مرجع سابق ، ص ١٧٥ .

(١٩) Michael Hudson : Arab Politics , The Soarch for lejitimacy , New Haven Yale University Press , 1977 , p 243 .

(٢٠) اكرام عبد القادر : مرجع سابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢١) مطاع صفدي : مصدر سابق ، ص ٣ .

- (٢٢) جمال الأتاسي : عبد الناصر والتجربة الثورية ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٣٣ .
- (٢٣) منح الصلح : عبد الناصر والجماهير العربية ، ندوة ثورة ٢٣ يوليو : قضايا الحاضر وتحديات المستقبل ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٧ .
- (٢٤) جمال الأتاسي : عبد الناصر والتجربة الثورية : ص ١٥ .
- (٢٥) غالي شكري : عروبة مصر وامتحان التاريخ ، ط٢ ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١ ، ص ٨٠ .
- (٢٦) هاتي الزعبي : مسألة البنية التحتية للقضية القومية واتجاه قانون القيمة في العالم العربي ، ص ٣٢٣ .
- (٢٧) عادل حسين : نحو فكر عربي جديد ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ٨٥ ، ص ١٩٠ .
- (٢٨) Robert Stephens , Nasser , Allenlane , The Penguin Press London , 1971 , p 9 .
- (٢٩) سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ٨٣ ، ص ٢٥١ .
- (٣٠) Dakmejaen , op , cit , pp 42-43 .

- (٣١) مطاع صفدي : مرجع سابق ، ص ١١ .
- (٣٢) منح الصلح : مرجع سابق ، ص ٢ .
- (٣٣) غالي شكري : مرجع سابق ، ص ٨٢ .
- (٣٤) سعد الدين ابراهيم : لماذا كان عبد الناصر زعيماً قومياً ، مصدر سابق ، ص ٢٨٢ .
- (٣٥) سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها ، ص ٢٥٢ .
- (٣٦) غالي شكري : عروبة مصر ، ص ١٣٥ .
- (٣٧) منح الصلح : مرجع سابق ، ص ٧ .
- (٣٨) سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها ، ص ٢٧٧ .
- (٣٩) جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير ، دار الشروق ، ص ٢٣٨ .
- (٤٠) محمد نعمان جلال : التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ، سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٤ .
